الفصل الثالث

المسيحية والحضارة الادبية

(المؤثرات المتبادلة بين مُثل المسيحية الادبية الاخلاقية وبين المثل التي سادت العالمين اليوناني والروماني — بعض المظاهر البارزة في التاريخ المتأخر للحضارة ، تلك المظاهر التي قامت على الاسس التي وضعها اليونان والرومان ، والتي تطلعت الى هداية أدبية دينية من جانب ممثلي المسيحية ومعلميها)

علينا الآن أن نتتبع عودة المذهب العقلي والنزعة الوطنية. وقد رأينا أن المثل الأعلى في المسيحية أعوزه في باديء الأمر هذان المظهران عند مقارنته بالمُثل العليا لدى اليونان والرومان الذين شادوا أسس الحضارة الأدبية . وسنرى أن عودة هذين المظهرين قد أدَّت الى التعديل في المثل الاصلية التي جاءت بها المسيحية ، وقد كان في هذا التعديل بعض الإخصاب من ناحية وبعض الإفساد والإضعاف من الناحية الاخرى . وبعد هذا سنرى تشعباً وتفرعاً للمثل الاعلى المسيحي في الحياة بدا مظهره

في شطر كنيسة الغرب الى كاثوليكية وبروتستانتية في عهد الاصلاح في القرن السادس عشر من التاريخ المسيحي . وسنعلق أخيراً على نهوض نزعة جديدة ، في مجموعة الشعوب التي تدين بالمسيحية ، تتخذ وجهة عالمية بحتة لادينية ، وقد سارت هذه النزعة يداً بيد مع موكب التقدم الخطير في تكشف أسرار العالم المادي واستغلالها لخير الانسانية ورفاهتها . وسأحاول أن ابيّن أن هـذه النزعة الجموحة التي بدأت ، كما قلت ، بين الشعوب التي تدّعي المسيحية لن يمكن أن تستمر سائبة جامحة دون أن يترتب عليها خطر داهم يتهدد العناصر القيّمة في الحياة البشرية التي من وظيفة الدين تهذيبها وترويضها ، سواء أكان هذا الدين المسيحية أو غيرها من الاديان

ولقد رأينا المسيحية في بدء عصورها الاولى ترغب عن المعرفة ، الاّ قليلها ، وعن السعي اليها كناحية من نواحي النشاط الانساني وميزة من ميزاته المشرّفة . وفي هذا اختلفت عن امة الاغريق التي كانت ثقافتها أساس الحضارة التي ازدهرت في تلك العصور على شطئان البحر الابيض المتوسط . ولكن المسيحية لم تصر ديناً لذلكم القوم الذين أشربت نفوسهم حب البحث والتقصي وتعشق المعرفة للمعرفة ذاتها ، دون أن تتأثر

بهذا الموقف . وكانت عقائد المسيحية ذاتها ، بحكم طبيعتها ، مرتعاً خصيباً وغذاءً دسماً للعقول المرّوضة على التفكير والتأمل ، فاهتبل كثيرون من عباقرة الاغريق هذه الفرصة واتخذوها لانفسهم رياضة عقلية عميقة .

ومن ثمَّ نرى في العالم المسيحي في العصور التالية لاعتناق امة الاغريق الدين المسيحي ،مذهباً عقلياً جديداً تطور فيما بعد وعُرف « بالارثوذكسية » . وقد كان هذا المذهب غريباً عن تقاليد اليونان القديمة قبل اعتناقها المسيحية ، وفي الوقت نفسه يختلف اختلافاً بيناً عن وجهة نظر المسيحية كما عرفها أتباعها من اليهود كموقف عملي شخصي تجاه الله،وكطريق للحياة اكثر منها نظاماً من عقائد تُبسط امام العقول العلمية المفكرة — وسأحاول أن اصف في شيء من الاسهاب ما أعنيه بفضيلة « الارثوذكسية » المزعومة ، وسأبين كيف أغدقت بعض الخير في هذا الاتجاه ، وان كنا لا نعدُّها في وضعها عنصراً دائماً في المثل الادبي الاخلاقي

ويخيَّل اليَّ أن اساس فكرة « الارثوذكسية » مثلث النواحي . فهناك أولاً ذلك الذخر من معرفة الله الذي تحدثت عنه في الفصل السابق كمفخرة من مفاخر اليهود التي اعتزوا بها

واكبروا من شأنها، لا كادراك علمي للطبيعة الالهية، بل كالمام عملي لارادة الله لنا ومشيئته فينا . وهناك ثانياً ذلك الاتصال الوثيق بين معرفة الله هـذه وبين سير الحوادث التاريخية في حياة يسوع الذي أعلن الله ذاته فيه على نمط فائق في طبيعته فريد في ذاته [1] . وهناك ثالثاً تعشق اليونان للتفكير العقلي، واتصال هذا التفكير بالاعلان الالهي، ومحاولته،في تحقيق وكيد ونسج دقيق ، تتبع آثاره المنطقية ومضمراته العقلية الفلسفية

العلاقة بين المعرفة والخلق الادبي :

وجدير بنا أن نلحظ هنا ان معرفة الله ، التي وصفتها إلماماً عملياً بارادته لنا ومشيئته فينا، تنطوي على خاصية أدبية أخلاقية في نفس صاحبها . فكما ان اختيار الانسان لأصدقائه ولمهنته في

---

(١) قال الاستاذ « كليمندس وب » في كتابه « العنصر التاريخي في الدين » : « ان الاختبار الديني المسيحي هو قبل كل شيء « **اشتراك فى حياة** » ومصدره ذلك المظهر الانساني الفعلي ، مظهر انسان جاز من الموت الى الحياة العليا ، وفي طوقه أن يصل مبدأ الحياة لهؤلاء الذين يتعلقون به ويرتبطون معه .

الحياة دليل على أخلاقه وصفاته الأدبية ، اذ يكون مبعث هـذا الاختيار عادة ما يبطن من عطف واحساس وادراك لما هو صالح وجميل ومرغوب فيه ، هكذا الحال في محبة الله وشريعته ، تلك المحبة التي كانت لدى اليهودي بمثابة «معرفة الله» . وتبعه في هذا المسيحي من بعده. كما قال يسوع نفسه في صدد اتباع هذه المحبة: ان أنقياء القلب هم الذين يحظون برأى الله (١)

ومن ثمَّ نرى الفكرة تنشأ عن خاصية أدبية أخلاقية بهذا المعنى. وبعد ذلك تنتقل الى ضرب آخر من ضروب معرفة الله أساسها التفكير عن الله في أقضية منطقية عقلية لا تُدرك الاَّ بتطبيق الفهم العلمي في شئون الوحي وموضوعاته . ولو كانت تلك الخاصية الأدبية الأخلاقية المنتقلة من نوع من أنواع المعرفة الى نوع آخر ، اقترنت في أفكار المسيحيين **بالتفكير الايجابى وكد الذهن** على النمط العلمي في المشاكل التي أثارها اختبارهم الديني عن الوحي الالهي ، لو كان قد حدث شيء من هـذا لكان المذهب العقلي الناتج عنه من النوع الذي عكف اليه قدماء اليونان ، ولكان هذا مناقضاً كل التناقض للتقاليد المسيحية التي امتنَّ سيدها وشكر الله لانه أخفى أسراره عن الحكماء

---

(١) متى ٥:٨

والفهماء، وأعلنها للاطفال[1]، كما قلنا في الآية التي اقتبسناها في الفصل السابق

ولكن شيئاً من هذا ولا ذاك لم يحدث. فان المسيحيين قد يعجبون بالمواهب العقلية التي يمتاز بها علماؤهم اللاهوتيون ولكنهم لا ينظرون الى نشاطهم العقلي كفضيلة من الفضائل الأدبية الأخلاقية الاّ من حيث اعتبار نشاط الانسان وجدّه وكدّه في أداء رسالته، سواء أكان عالماً كبيراً أو عاملاً صغيراً، من الفضائل الأدبية المحبوبة. أما الذي حسبوه فضيلة أخلاقية أدبية فهو اعتصام المسيحيين **اعتصاماً تاماً مكيناً**، بالحق المعلن من الله، سواء أكانوا علماء أو بسطاء. فكان اذا أذاع اللاهوتيون شرحاً أو تأويلاً لذلك الحق وقبلته الكنيسة كأنه ينطبق على روح ايمانها، كان يُعتبر الاعتصام بهذا الشرح أو التأويل فضيلة أخلاقية أدبية. وأولئك البسطاء الذين لم يفهموا شيئاً من دخائل الأمر الاّ ان السلطة التي هي موضع احترامهم قد علمتهم هذا دون أن يثيروا أي نقد، كانوا أسرع في اظهار هذه الفضيلة من المتعلمين والمقتدرين الذين ربما ساقهم اهتمامهم بالمشاكل الى اثارة التساؤل والشكوك حول الحلول التي تلقّوها

---

(١) متى ١١:٢٥

ومن ثمّ نرى الخاصية الادبية، المتعلقة بمعرفة الله الادبية والمستعلنة في التعبّد له والخضوع لشريعته، قد انتقلت فصارت قبول عقائد معينة عنه مسلّمة ممن لهم السلطان. والمفروض انه هو الذي أوحى اليهم هذه الحقائق، لذلك يطلب منّا الولاء الخاضع له في الايمان بها

العلاقة بين الارثوذكسية والاضطهاد الديني:

ولعلّه من الضروري هنا أن نشير الى ان هناك علاقة وثيقة، في التاريخ وفي المبدأ، بين الأرثوذكسية (بالمعنى الذي أسلفنا) وما اتصفت به من قدر كبير وتقدير سام، وبين الجنوح الى الاضطهاد الديني. وعندنا ان هذا الاضطهاد الذي شاب أديانًا كثيرة فطمس رواء معالمها، قد عاب سلوك المسيحيين، لا امام أتباع الأديان الأخرى فقط، بل امام اخوانهم المسيحيين الذين اختلفوا معهم في العقائد أو الطقوس

فان الاعتقاد بأن لا شيء أكثر قبولاً لدى الله من الاذعان الصريح لما يعلنه لنا، قد مهّد الطريق لذوي المقام والفضل الأدبي ليؤمنوا انهم انما يفعلون واجبهم نحو اخوانهم حين يبذلون جهد المستطاع للاقلال من عدد المنشقين عنهم في هذا

الاذعان مهما كلفهم ذلك . وقد اقترن هذا الغرض المتقد بصرامة في المعاملة تثبط جهود المنشقين الآ من انطوت نفوسهم على الاقتناع الشديد ، كما اقترن أيضاً بمحاولة لابادة أولئك المنشقين المعاندين حتى لا يعملوا على اقناع الآخرين واشراكهم معهم في عدم الاذعان لما يظنونه الحق الالهي . وقد كان من الصعب جداً ، بل من المتعذر حقاً ، ان نوفق بين الطباع والاخلاق التي تجيز هذه المباديء وبين ما عهده كثرة الناس في الانجيل من دعوة الى العطف والمحبة والمودة ، وتمجيد هذه كأسٍّ للفضائل

ما قيمة الارثوذكسية[1] ؟

واذا دققنا النظر في فكرة الارثوذكسية التي حاولت وصفها ، نجدها منطوية على عناصر مختلفة متباينة في قيمها . فقد قيل ان فضيلة الارثوذكسية هي في قبول الحقائق المسلَّمة ممن لهم السلطان الالهي قبولاً هادئاً وديعاً ، وفي تأييدها تأييداً صادقاً أكيداً .

---

(١) وليس المقصود بالارثوذكسية هنا مذهباً أو كنيسة معينة ، بل الغرض منها المعنى اللاهوتي الفلسفي الذي شرحه المؤلف — المعرّب

وهذا في جوهره يختلف كل الاختلاف عن الطريقة الحرّة السائبة التي نطلق العنان فيها لعقولنا لتحاول حلّ المشاكل التي يثيرها اختبارنا. وهنا لا بدّ لنا من التسليم أن لا غضاضة في استخدام ذكاء العقل الباحث وقوة الفكر الناقد في شئون الوحي الالهي أو في شئون الاختبار الديني. فان اللجوء الى مواهبنا السامية في علاج الموضوعات الخطيرة لا غُبار عليه، بل لا معدىً عنه

ويبقى علينا بعد هذا أن نقول حقاً إن هناك مجالاً في الحياة البشرية للاعتراف بسلطة لها من الحكمة والصلاح أكثر مما لدينا، وإن هناك أيضاً مجالاً للاستسلام الطائع المختار لتلك السلطة. وبعد أن قلت فيما سبق انه قد عُزى الى الارثوذكسية فضيلة أدبية ليست منها، فاني لا أرضى أن أنكر على البحث اللاهوتي العلمي ما له من مكانة وكرامة هو جدير بها. ومع هذا فاني أرى، فيما ذهب اليه المعلّمون المسيحيون في بعض العصور وبعض البلدان من تقدير سامٍ للارثوذكسية، أرى في هذا خلطاً بين سموّ الفكرة في التشبث، في ولاء واخلاص، بما نعتقده حقاً، وبين ذلك الحماس المندفع في غير تساؤل نحو العقائد التعليمية الوضعية التي لا تهيء في أذهان أنصارها والمدافعين

عنها معنى مميزاً صريحاً ، ولكنها تقوم على فِكَر وأسباب أخرى لا دخل فيها لعقولهم وتفكيرهم

و بعد الذي قلناه من أن أولئك الذين علقوا كبير أهمية على قبول النظريات والآراء ، التي لم يفهموها ، كانوا في أحيان كثيرة مصيبين في ظنهم أن العقائد التي انطوت عليها تلك الآراء اتصلت اتصالاً وثيقاً بالحياة الأدبية والروحية في الجماعة التي اعتنقت تلك العقائد ، بعد هذا ينبغي الآ ننكر ان التشبث بالأوضاع والآراء الأرثوذكسية عن طريق اباحة التعصب للرأي والاضطهاد واغفال تجارب المحبة التي قام بها الآخرون في جهودهم وأعمالهم ، تلك التجارب التي وقف المسيح نفسه الى جانبها وحسبها المعيار الذي يُدان به الانسان في اليوم الاخير على أساس اتمامها أو اغفالها — نقول ان هذا التشبث أدّى الى نتائج تحملنا على التفكير ان ذلك التشديد في حدّ ذاته لم يكن صائباً ، وان الأرثوذكسية على هذا الوضع ليست فضلاً من أفضال المسيحية على الاخلاق

ومع ذلك أعتقد اننا نخطىء اذا كنّا لا نعترف انها أضفت بعض الفضل من هذه الناحية . وذلك لأن الأهمية العظمى التي علّقها المسيحيون على الارثوذكسية في العصر القديم اقترنت

باستعداد للموت في سبيل الايمـــان ، ذلك الاستعداد الباسل الذي بدا مستغرباً ومثاراً للدهشـــة في أعين اليونان والرومان قديماً ، ولو أنه لم يكن مقتصراً على المسيحيين فقط . وروح الاستشهاد هذا هو فضل عظيم على الاخلاق ، وقد بدت ظواهره أحياناً في عصور متأخرة في أناس قضوا شهداء على أيدي المسيحيين في سبيل دين لم يكونوا هم من أتباعه . ولكن أمثال هؤلاء انما أظهروا فضيلة سبقهم في ممارستها المسيحيون الأولون .

بزوغ الروح القومية في العالم المسيحي :

قلت في مستهل هذا الفصل اني سألفت الانظار الى ظهور أوضاع جديدة للمذهب العقلي بين المثُل العليا في المسيحية ، وان تكن تلك الاوضاع تختلف عن مثيلاتها التي سادت المبادىء اليونانية القديمة . وقلت اني سأتحدث عن نهضة مماثلة لهذه في بزوغ روح الوطنية التي كانت من أهم المظاهر في الشعوب التي اتصلت بها المسيحية في بدء ظهورها . ولعلَّ في ابتعاد المسيحيين عن مباديء الوطنية في العصور الاولى من تاريخ المسيحية ، السبب الاكبر في جعل المسيحية ديناً غير مقبول اولاً لدى

الطبقات الحاكمة بين اليهود ، ثم لدى حكومة الامبراطورية الرومانية ، والطبقات العليا في الشعب

وينبغي ألاَّ يفوتنا ان المسيحية ظلت دهراً طويلاً ، الاَّ في بعض الاحوال النادرة ، محصورة في نطاق البلدان الخاضعة للامبراطورية الرومانية — وان يكن من المسلَّم به مثلاً — كما تقول التقاليد — ان الكنيسة المسيحية الاولى في بلاد الهند نشأت في عصر الرسل انفسهم. وقد كانت تلك الجماعة الهندية وغيرها من الجماعات الصغرى التي تأسست خارج تخوم الامبراطورية الرومانية، بعيدة عن مراكز النشاط المسيحي ، ولم يكن لها شأن يُذكر لقلة عددها في منع الاتجاه الذي سارت فيه المسيحية، بعد ان صارت ديناً رسمياً للدولة ، من اقتران الولاء للمسيحية . بالاخلاص الوطني للنظم الامبراطورية وسيرها معاً جنباً الى جنب. وقلما كان هذا ممكناً في بادىء الامر طالما كان المسيحيون عرضة لاتهامات الخيانة للامبراطورية وأساليب الاضطهادات العنيفة. ولكن على الرغم من ذلك فان الشعور الوطني والولاء للامبراطورية الرومانية ونظمها لم يكن ليؤثر كثيراً فيما ادَّعته المسيحية من انها الدين الجامع الشامل للجنس البشري كافة ، لا دين شعب خاص أو جنس معين (كما كان شأن اكثر

الاديان في العصور الاولى) . وقد تأيد هـذا فيما بعد عند ما انقسمت الامبراطورية الرومانية الى قوميات صغرى تتبادل العداء في العالم الذي دان بالمسيحية يومئذ . والخوض في هـذه الحركة وما ترتب عليها من آثار معناه سرد رواية تاريخ العصور الوسطى .

أثر الدين في القوميات التي نشأت في الشرق والغرب

على اننا نلاحظ ان المسيحية قد أثرّت وتأثرّت بظهور الشعور القومي ، كعامل من عوامل السياسة من ناحيتين : الاولى في عالم الشرق المسيحي ، والاخرى في عالم الغرب . فحدث في الشرق المسيحي ان انتهزت روح القومية فرصة المنازعات اللاهوتية التي اكبرت من شأنها النزعة الارثوذكسية التي ألمحت اليها من قبل ، فأنساقت بعض القوميات الى اعتناق آراء لاهوتية معينة ، فظهرت الخلافات القومية بمظهر خلافات في الرأى حول النظرية الصحيحة في حقيقة الوحي المسيحي . اما في الغرب المسيحي فقد كان لقيام المطارنة أو البابوات واحتلالهم مكانة السلطان المطلق في الشئون الكنسية ، أقوى

الأثر فيما أدّعته المسيحية من انها ليست دين امة معينة وانها متسامية فوق كل الاعتبارات القومية

وكان من آثار هذا ان أحست الشعوب الاوربية ، بعد اذ بلغت طور النضوج كامم ، ان تنظيم الكنيسة تنظيماً روحياً تحت اشراف البابوات عائق في سبيل الحصول على الاستقلال القومي الكامل .وقد كان هذا العامل الاكبر في انشقاق بعض الشعوب المسيحية عن الوحدة الكاثوليكية أو الكنيسة الجامعة في عصر الاصلاح في القرن السادس عشر . وفي كل البلدان التي انشقت أعيد تنظيم الكنيسة على اساس قومي وطني.ومع ان المسلَّم به نظرياً ان المسيحية تتسامى فوق كل الفوارق القومية ، فقد كان من الهين عملياً ان يعتبر الناس مسيحيتهم ديناً قومياً لهم يفصلهم عن الشعوب الاخرى التي لا تدين بالمسيحية أو التي تدين بها على النحو أو الوضع الذي لم يكن في نظرهم أفضل اوضاع المسيحية وأصدقها

ومن ثمَّ زال ذلك الضابط الذي وضعته المسيحية في باديء الامر لكبح جماح كل ميل ينزلق الى اعتبار خير الدولة وسلامتها اسمى قاعدة من قواعد السلوك والآداب ، وأضاع عالم الغرب الشيء الكثير مما كسبه بفضل اعتناقه المسيحية . ولقد كشفت

الحرب العظمى بشكل مريع نتائج هذا التفاعل الذي كان مختمراً في العصور السابقة ، حيث كان الشعور القومي آخذاً في النماء التدريجي ، وحيث كان الاحساس بالوحدة الدينية سائراً الى سبيل الانحلال في الشعوب التي دانت بالمسيحية

مدى دعاوى القومية

اما عن الشعور القومي فقد تجد الآداب المسيحية لنفسها مكانة فيه أشبه بمكانة الولاء للوالدين او الاسرة . على انه لم يكن لأيهما في تعاليم المسيحية — أي للشعور القومي والولاء للاسرة — السلطان المطلق على ضمير الانسان . والواقع ان ظروف حياة المسيح لم تبعث منه تصريحاً واضحاً عن شعور الوطنية القومية. فقد علّم تلاميذه أن يدفعوا الضرائب التي تفرضها الحكومة التي يخضعون لنظامها (١) وأوصاهم ان يفعلوا اكثر مما يُطلب اليهم في سبيل الخدمة العامة (٢) . ولكن الحكومة التي أشار اليها في هذه الاقوال هي الحكومة الرومانية . وهي حكومة غريبة دخيلة في نظر مواطنيه اليهود. ولما بكى على اورشليم (٣)

---

(١) مرقس ١٢:١٧ (٢) متى ٥:٤١ (٣) لوقا ١٩:٤١

التي نبذته،أبدى في هذا البكاء احساساً وطنياً صادقاً نحو مدينة شعبه المقدسة

ولكن ظروف حياته، كما قلت، لم تهيء له سبيل الاتصال الوثيق بمطالب الوطنية القومية، كما كان شأنه حيال الواجبات التي فرضتها مطالب الاسرة. فانه في هذه قد نادى بتعليم صادق. فكان اكرام الوالدين في نظره فرضاً مرتباً من الله، وتكليفاً لا يمكن للنذور الدينية أن تقوم بديلاً عنه (١). ومع هذا كله فانه على الانسان أمام دعوة الله ان يترك أباه وامه، ويسلك اذا اقتضى الحال كأنه يبغضهما (٢) وهذا المبدأ أي الاعتراف بالواجب المفروض المقدس،وليس الواجب المطلق الذي نرعاه في حقوق الوالدين، يمكن تطبيقه على الواجب المفروض نحو الوطن

مقياس الاخلاق المزدوج

والآن نرى الكنيسة المسيحية تضع امام اعضائها مقياساً مزدوجاً للاخلاق. فهي تعترف بالواجبات العادية التي تفرضها

---

(١) مرقس ٧:٩ (٢) لوقا ١٤:٢٦

الجماعة — نحو الاسرة او المدينة أو الوطن — كواجبات عامة يُظهر فيها المسيحيون محبة الله ومحبة القريب ، وهما الوصيتان اللتان يتلخص فيهما السلوك الحسن كما أسلفنا في الفصل الاول. ولكنها تعترف أيضاً بدعوة خاصة يتلقاها افراد من خواص الناس تفرض عليهم الاعتزال عن الجماعة التي تقوم باداء الوظائف الضرورية للحياة الانسانية في العالم، تفرض عليهم البقاء في حالة العزوبة ، أو التجرد من كل المقتنيات الخاصة. أو الخضوع في الحياة لاساليب من القمع والترويض ، ليضعوا امام أعين الناس نماذج لامكانية الدعوة التي تنتزع الناس من مسالك الحياة العادية الى حياة الصلة بالله والانس به. وأمثال هؤلاء اطلق عليهم في الاصطلاح الفني الديني لقب «متدينين أتقياء» (١) وأعدت المؤسسات والاديرة للرجال والنساء ، لتهوين الحياة على أمثال هؤلاء الناس

قلت ، عند الكلام على المثل الاعلى في الارثوذكسية ، ان المسيحية لم تشجع الرأي القائل أن التفكير العلمي العميق ، حتى في شئون الوحي ، يضع الذين شغفوا به ، في مستوى روحي أعلى من مستوى اخوانهم ممن هم دونهم في العلم أو النشاط

---

(١) انظر في الفرنسية الكلمة "religieux" للراهب و "religieuse" للراهبة

العقلي . ولقد ذهب بعض الهراطقة الاولين — الذين نسميهم العارفين (Gnostics) — الى القول بأن هناك طبقة ارستقراطية دينية من الناس تفهم دخائل التعاليم ومعانيها الخفية ،التي لا يفهم منها عامة المؤمنين الا الرموز الخارجية . ولكن هذا الادعاء قد نبذه جمهرة المسيحيين.و إنّا لنرى في ميدان السلوك البشري ميلاً اكثر تقارباً يرمي الى ايجاد مقياسين احدهما أعلى والآخر أدنى ، الواحد لمن اكتفوا باطاعة أحكام الانجيل ووصاياه التي يرتبط بها جميع الناس ، والآخر لمن أخذوا على أنفسهم نذور الكمال — العزوبة والفقر والطاعة . ولسنا ننكر أنه لم يُنادَ صراحة ان اولئك الذين أخذوا على انفسهم هذه النذور ، من رهبان وراهبات ، يفضلون بالضرورة اولئك الذين لم ينهجوا نهجهم . ومع ذلك فقد حسب الذين ضيَّقوا على أنفسهم هذا التضييق كأنهم مُنحوا فرصة أفضل لمرضاة الله . وليس صدفة واتفاقاً ان تكون نسبة الذين خُلعت عليهم القاب القديسين بين الرهبان والراهبات أكثر منها بين سواهم

وقد كان هذا التسليم بمستوى مزدوج في الحياة من النقط، ولعلّه أهم النقط ، التي أفترقت عندها المسيحية البروتستانتية عن الكثلكة . ولقد رأينا من قبل أن ما نسميه في التاريخ بعصر

الاصلاح كان مبعثه الى حدٍّ كبير ذلك الجزع الذي استولى على بعض الشعوب الاوربية من جرّاء الدعاوى التي ادّعاها اساقفة أو باباوات رومية من ان انهم رؤساء وسادة الكنيسة المسيحية، بل أصحاب السلطان والامر والنهي فوق السلطات القومية الوطنية . ومن هنا نشأت الرغبة في الاستقلال القومي في الدين، يصحبها ذلك اليقين القائل ان امام المواطن الصالح الذي يشترك في حياة الجماعة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية مجالاً للعمل كمسيحي لا يقلُّ شأناً عن الراهب في صومعته أو الناسك في عزلته .

ولما كانت تلك الاديرة والمعازل الدينية تحت أوامر الباباوات وخاضعة لهم مباشرة في كل شيء ، فقد كان طبيعياً ان تبطل هذه النظم في الشعوب التي مالت الى الاصلاح ونبذت عنها السلطة البابوية،وذلك لان تلك النظم قداقترنت بفكرة المستوى المزدوج في الآداب وفكرة سيطرة أساقفة رومية وتدخلّهم في اختصاصات السلطات المدنية

وقد عرجت في حديثي الى هذه المسائل لان الوقوف على اطوارها ضروري لفهم موقف المسيحية، وخصوصاً الآداب المسيحية ، حيال الاتجاه العالمي المادي المحض أو اللاديني الذي

نراه سائداً في هذا العصر، وحيال الظواهر التي نراها ماثلة فيمن يسعون سعياً دءوباً وراء اللذات والمنافع ومتع الحياة التي وضعتها تحت امرة ابناء هذا العصر كشوف القوى الطبيعية المتكاثرة

الاتجاه المادي :

وهذا اتجاه طبيعي حيث يعيش نسبة كبيرة من الشعب في المدن الكبرى ، لانه في تلك المدن ، التي خلقتها التطورات الصناعية في كثير من بلدان العالم في غضون القرن الماضي ، ينقطع الناس عن أصول الحياة الريفية وعن عبادة الله التي كانت من أعزّ تقاليدهم . ولعلّه حق ان يقال ان هذه الاتجاه — في اوربا — قد ساعد على تغذيته ونموّه اختفاء الاديرة التي أفلح الاصلاح في ازالة آثارها، وقد كانت تلك منتديات لاخراج طراز خاص من الرجال والنساء قد افرزوا حياتهم للصلاة والتعبّد والانقطاع عن أسباب الحياة العادية التي جعل الآخرون قوامها جمع المال .

وقد اقترن اختفاء هذه الاديرة ، كما رأينا ، بالرغبة في ايجاد مستوى واحد للاخلاق هو المثل الاعلى، وبالقول ان الانسان يقدر ان يخدم الله وهو يؤدي واجباته الوطنية والعائلية على نحو مايفرضه

الدين ، كما يقدر ان يخدمه وهو في الاعتكاف الخضع لقواعد الزهد والتقشف . ولكن سرعان ما زلقت الطبيعة البشرية في ضعفها، فحيث ينعدم المقياس الاجتماعي العام، والطراز المعين للنسج عليه في الحياة، وحيث تختفي المظاهر الخارجية لتثبيت هذا الطراز من الحياة ، لا يلبث الناس طويلاً حتى ينسوا هذا كله وتضلّ أنظارهم في تتبع سبيل الحياة الذي جعلوه مقياساً وطرازاً . وقد كان هذا شأن البلدان البروتستانتية التي أينعت فيها الحضارة المادية الصناعية التي تسود العالم اليوم .

على انه ينبغي الاّ نغفل مقاصّة تعدل هذه الوقائع وتوازنها، الاّ وهي ان البلدان الكاثوليكية التي ظلّت فيها هذه المعاهد تغذي دين التعبّد والتقشف والاعتزال — قد وقفت ، لا سيما على أثر اتصالها بالنظم الدولية التي ترأسها أساقفة وباباوات رومية — موقف عداء تجاه الدين لا سيما من جانب الذين اغرقوا أنفسهم في خدمة المصالح المادية لشعوبهم، وكان اولئك أشدّ في موقف العداء للدين من البلدان التي لم تقترن فيها التقاليد المسيحية بنظم خارجة عن الحياة القومية

هل الحضارة تفقد روحها ؟

ومهما تكن الاسباب فانه لا مناص لنا من التسليم بازدهار هذا الروح المادي العالمي ، الآخذ بالتزايد المستمر كلما تقدمت المخترعات وسهلت سبل المواصلات ووفرت الحاجات الانسانية في هذا العالم . والذي نخشاه انه بانتشار هذه الثقافة القائمة على استكمال الحاجات الاقتصادية والملمة بالعلوم الطبيعية ، تفقد الحضارة روحها . ذلك لان روح الحضارة هو الدين ، وانه ليسهل على ثقافة من هذا الطراز ان يفلت الدين من زمامها

ولقد رأينا ان المسيحية هي التي هيأت للحضارة السند والنصير مدى أجيال طوال ، والدين وحده هو الضمين بتهيئة هذا السند . وحينما وهنت الى حدّ ما تعاليم المسيحية ، ظلت المبادىء الاخلاقية ، التي قامت على هذه التعاليم ، حقبة طويلة من الزمن ، محتفظة بنفوذها وشوكتها . ويبدو الآن ان تلك المبادىء الاخلاقية أخذت تضعف في العصور المتأخرة ، لان هذه المبادىء متأصلة في الايمان بالله . ومتى ضعف هذا الايمان ، اهتزت وتناثرت تلك المبادىء

وكمسيحي اؤمن أن المسيحية لم تفقد قوتها في الحضارة

الحديثة ، وهي ما برحت تذكي الضرام الذي أذكته من قبل في الحضارة الرومانيـة اليونانية التي ازدهرت في عصرها في كبريات المدن على أسـاس من النجح المادي . ولـكنني كمسيحي اعتقد ان المسيحية لا يمكن أن تكون كما نريدها، ولا أن تقوم بالمهمة التي نتطلبها منها ، اذا ارتضت ان تكون ديانة اوربية وحسب . لان تلك المهمة التي ننتظر من الدين ان يقوم بها في إسناد الحضارة وارشاد خطاها ، لا يؤديها الاّ دين في وسعه استمداد القوة المختزنة في الميول والاختبارات الدينية في غير اوربا ، في بلاد الهند مثلاً

والمشكلة القائمة الآن أمام جميع المتدينين أن يجدوا الوسائل ليبثوا في نفوس الجموع المتزايدة من سكان المدن فكرة عن الله ورغبة في معرفته والاتحاد به ، على ان لا يغضوا الطرف في الوقت نفسه عن بثّ هذه الحياة الروحية في القرى والريف وفي كل مكان . لاننا واثقون أنه في الامكان ان تمتلىء قلوب البشر بجدّة الحياة

ولا يفوتنا ان الذين حملوا الى الشرق هذه الحضارة الممتزجة بالمادية والعالمية بما انطوت عليه من الخطر على كل شعب يميل

اليها ، ينتمون الى شعوب تدين بالمسيحية ، ومع ذلك **فليس فى أُصول المسيحية ما يبرر افساد الشيء الصالح فى حد ذاته** . «لان ليست حياة الانسان من أمواله » [1] وأيضاً «لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون . ولا لاجسامكم بما تلبسون . أليست الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس». [2] «اطلبوا اولاً ملكوت الله وبرّه وهذه كلها تزاد لكم » . [3] « ماذا ينتفع الانسان لو ربح العالم وخسر نفسه » . [4] هذ كلها أقوال تفوّه بها السيد المسيح ، ومثلها كثير من نوعها مستمدة في نظر المسيحيين من سلطة إلهية . وان المسيحيين حقاً يعطفون كل العطف على المجاهدين ضد هذه الميول المعادية لكل دين ، الميول التي لا غالب لها الاّ الدين ، ويشاركون بقلوبهم جميع الساعين لصدّ هجمات المادّية والعالمية .

---

(١) لو ١٢:١٥

(٢) متى ٦:٢٥

(٣) متى ٦:٣٣ (٤) مرقس ٨:٣٣

obeikandi.com